

صوتيات الدلالة في روميات أبي فراس الحمداني

أمينة بلوحي

كلية الآداب واللغات والفنون

جامعة سيدي بلعباس

ملخص:

تنقسم الأصوات اللغوية إلى قسمين رئيسيين هما، الحروف وتعرف بالصوامت، أو الأصوات الساكنة، والحركات، وتعرف بالصوائت، فهل لهذه الأصوات دلالة يا ترى؟ سأركز في مقالتي هذا على الأصوات التي وردت بنسب عالية تفوق الخمسين، وكانت على ما تعودت الأصوات اللدلية، التي لا تكاد تخلوا منها كلمة في اللغة العربية. **الكلمات المفتاحية:** أبو فراس الحمداني، الدلالة، الصوتيات.

الأصوات الصامتة ودلالاتها:

تعد دراسة الأصوات اللغوية من أكثر الدراسات اهتماماً واكتمالاً عند العرب القدماء، كما لها دور كبير في إبراز الوظيفة الصوتية المتمثلة في التمييز بين الوحدات الصوتية، والتي يترتب على تغييرها في النظام تغيير في الدلالة، حيث تهتم الدراسة الصوتية، بالوحدات الصوتية من حيث كونها صوامت أو صوائت، كما تهتم بتحليل الملامح الصوتية، كتنكرار صوت بعينه والنظر إليه من حيث كونه ساكناً أو متحركاً، وبالنظر إلى صفاته من حيث الجهر والهمس وغير ذلك من الصفات، حيث يتطلب التحليل الصوتي معرفة الخصائص الصوتية في اللغة، ومن ثم رصد الظواهر الخارجية عن النمط والبحث في دلالاتها، ولقد ذكرنا في ما سبق الخصائص الفيزيائية واللغوية للصوت، أما صفات الصوت فهي كالتالي:

صفات الأصوات:

1- **الجهر والهمس:** الصوامت الجهورية في اللغة العربية ثلاثة عشر صوتاً وهي: الباء، الجيم، الدال، الذال،

الراء، الزاي، الضاد، الطاء، العين، الغين، اللام، الميم، النون.

أما الصوامت المهموسة فهي اثنا عشر صوتاً هي: التاء، الثاء، الحاء، الخاء، السين، الشين، الصاد، الطاء، الفاء، القاف، الكاف، الهاء.

2- **الشدّة والرخاوة:** الأصوات الشديدة هي: الباء، التاء، الدال، الطاء، الضاد، الكاف، القاف.

أما الرخاوة فهي: السين، الزاي، الصاد، الشين، الذال، الثاء، الطاء، الفاء، الهاء، الحاء، العين.

وهناك أصوات متوسطة أي بين الشدة والرخاوة وهي: اللام، النون، الميم، الراء.

- 3- الإطباق والانفتاح: الأصوات المطبقة هي: الصاد، الضاد، الطاء، الظاء.
- 4- الاستعلاء والاستفال: حروف الاستعلاء هي: الخاء، الصاد، الضاد، الطاء، الظاء، الغين، القاف.
- 5- التفخيم والترقيق: أصوات التفخيم هي: الخاء، الصاد، الضاد، الطاء، الظاء، الغين، القاف وإضافة إلى صوت الراء في مواضع وصوت اللام في مواضع.
- 6- الإذلاق والإصمات: أصوات الإذلاق هي: الباء، الراء، الفاء، اللام، الميم، النون.
- 7- الصفير: وأصواته هي: الصاد، السين، الزاي.
- 8- التكرير: وهو صوت الراء.

9- الاستطالة والتفشي: والمقصود بذلك أن في صوتي الضاد والشين استطالة وانسباطاً يقربان بهما من مخارج غيرهما من الأصوات، بحيث تصلهما بمخرج الطاء والظاء وأختيهما وبالتالي يجوز إدغامها فيهما. كان هذا استعراضاً سريعاً لمخارج الصوامت وصفاتها، وذلك باعتبار أنه لا يمكن الوصول إلى دلالة الأصوات إلا إذا ربطت بصفاتهما العامة كالجهر والهمس والشدة والرخاوة أو بصفاتهما الخاصة كالإطباق والاستطالة والتفشي ، أو ما تتميز به بعض الأصوات عن الأخرى كالانحراف والتكرار، وللأصوات وظائف دلالية تبرز قدرة الشاعر على التعبير عن تجربته ، وذلك أن اختلاف التجارب يبعث على اختلاف الأصوات الدالة عليها عند الشاعر الواحد ، فشعر الغزل ينسجم مع أصوات لا ينسجم معها شعر الفخر ، وشعر الطبيعة ينسجم مع أصوات لا ينسجم معها شعر المعارك ، ومن هنا فإن الأصوات تنقسم إلى قسمين " أحدهما ينسجم مع المعنى العنيف والآخر يناسب المعنى الرقيق الهادئ ، ومرجع هذا التقسيم في الحروف إلى صفاتها ووقعها في الآذان.

الأصوات الدلالية:

صوت اللام:

تواتر هذا الصوت في روميات أبي فراس الحمداني نحو ثلاث وستون و ثلاثة آلاف مرة بنسبة 13.44%، وهو بذلك يمثل أكبر نسبة من حيث الورد قياساً إلى باقي الأصوات الأخرى، ومن أمثلة استعماله قول الشاعر في مقطوعة "في الأسر":

أسرت فِلمِ أذقِ للنومِ طعماً * ولا حلِ الطعانِ لنا حزاماً
وسرنا، معلمين، إليك حتي * ضربنا، خليف خرشنة الخياما؟

حيث تواتر هذا صوت - في هذين البيتين - اثنتي عشر مرة وفي القصيدة ككل سبعون ومئة مرة، وهذا ما يدل على حضور هذا الصوت بقوة وهو مقترن بمعني الضعف وحالة العجز التي ألمت بالشاعر وهو الأسير في بلاد الروم.

ونجد كذلك صوت اللام قوله في قصيدة "سمر الرماح":

هل تعطفان علي العليل * لا بالأسير ولا القليل

باتت قلبه الأَك * ف، سحابة الليل الطويل
يرعى النجوم السائرا * ت من الطلوع إلى الأفول

تواتر صوت اللام في هذه الأبيات عشرون مرة، وفي القصيدة ككل نحو اثنين وتسعين مرة، مما يترجم الحضور القوي لهذا الصوت علاوة على وروده رويًا للقصيدة، ولقد ساعد ذلك في خلق الإحساس بالألم الذي ألم بنفس الشاعر، راسمًا بذلك صورة حية عن الواقع المر الذي يعيشه الشاعر في الأسر، وقد جسّد هذا الألم عدة كلمات موحية وظف فيها هذا الصوت مثل: (العليل، الأسير، القليل، الليل، الطويل...)، فساهم هذا الصوت في نقل صوت الشاعر الصارخ من حدة الألم.

صوت النون:

كثر استخدام النون في شعر الروميات، إذ تواتر نحو أربع وثمانين وسبعمئة وألف، أي بنسبة 07.67%، وهو بذلك يحتل المرتبة الثالثة من حيث الورد بعد اللام والياء، وقد كثر تواتره بصفة ملفتة في القصائد الآتية: (طارقة النوى، ما أعجب الحب، المقلة النجلاء، مصابي جليل والعزاء جميل، الحسرة، الصبر في الأسى، في الأسر، الشباب مضنة...).

ومن أمثلة استعمال هذا الصوت في روميات أبي فراس الحمداني قوله في روميته "أيا أم الأسير":

أيا أماه، كم هم طويل * مضى به لم يكن منه نصير
أيا أماه، كم سر مصون * بقلبك، مات ليس له ظهور
أيا أماه، كم بشرى بقربي * أتتك، ودونها الأجل القصير

لقد تواتر صوت النون في هذه الأبيات خمس مرات، وفي القصيدة ككل نحو خمس وخمسين مرة، وجاء هذا الصوت ليحسّد معنى الألم والأنين العميق الصادر عن نفس حائرة، معذبة أملت بها الفجائع من كل صوب وحذب لا سيما فجیعة وفاة أمه وهو في الأسر، فنجدّه يناديها مستغيثًا باستمرار، ويتسائل عن من يسانده في محنة أسره، ومن سيدعو له، ومن سيفتح له قلبه لولاها؟، إضافة إلى مساهمة صوت النون في تجسيد وتكريس معنى البعد.

صوت الراء:

تواتر هذا الصوت في شعر الروميات نحو سبعين ومائتين وألف مرة، بنسبة 05.57%، وهو بذلك يكون ثامن صوت يستخدمه الشاعر، وقد ارتبط التكرار الصوتي لهذا الصوت ارتباطًا وثيقًا بالعاطفة القوية التي غمرت الشاعر، ومن أمثلة استخداماته قوله في رائيته الشهيرة "أراك عصي الدمع":

فلا تنكريني، يا ابنة العم، إنه * ليعرف من أنكرته البدو والحضر
ولا تنكريني، إنني غير منكر * إذا زلت الأقدام، واستنزل النصر
وإني لجرار لكل كتيبة * معودة أن لا يخل بها النصر
وإني لنزال بكل مخوفة * كثير إلى نزالها النظر الشزر

لقد بلغ تواتر صوت الراء في هذه القصيدة ككل نحو ثلاث وثلاثين ومائة مرة، وتواتر في الأبيات السابقة أربع عشر مرة، إذ لم يخلوا منها بيت إلا وتوفر على هذا الصوت بكمية متفاوتة، علاوة على أنه جاء رويًا للقصيدة. كما ساهم هذا الصوت في إضفاء معنى القوة التي اجتاحت نفس الشاعر خصوصًا وأنه بصدد تعداد مناقبه في مجال الحرب والتغني بشجاعته، وقد دعم هذه المعاني أكثر ورود تكرار صوت الراء في كلمات موحية مثل (لجرار، النصر، كثير...)، مما زاد المعنى وضوحًا وأكسبه قوة أكبر، ودون أن نغفل عن ما كان لهذا الصوت من دور في تحقيق نغم موسيقي ناجم عن وحدة الروي إلى جانب الوضوح السمعي.

الأصوات الحلقية:

صوت الهاء:

تواتر صوت الهاء نحو تسع وثلاثين وتسعمائة مرة وذلك بنسبة 04.12 %، وهو بذلك يحتل المرتبة الثانية عشرة، وقد ساهم هذا الصوت في الكشف عن عدة معاني صرحت بها روميات أبي فراس الحمداني، ومن أمثلت ذلك قوله في روميته "ما أعجب الحب" واصفا شوقه وأحاسيسه المرهفة تجاه الحبيب النائي:

يا ساهرا، لعبت أيدي الفراق به * فالصبر خاذله والدموع ناصره
 إن الحبيب الذي هام الفؤاد به * ينام عن طول ليل أنت ساهره
 ما أنس لا أنس ليوم موقفنا * والشوق ينهي البكاء عني ويأمره
 وقولها، ودموع العيواكفة: * هذا الفراق الذي كنا نحاذره

تواتر صوت الهاء في هذه الأبيات ثلاث عشر مرة، وفي القصيدة ككل نحو ست وعشرين ومائة مرة، فلم يخل بيتا منها إلا وتوفر على صوت الهاء، وقد كشف لنا هذا الصوت عما يختلج ذات الشاعر من حرارة الألم وتصاعد الآهات والتعبير عن الشوق للحبيب الجاني النائي المتغافل عن محبه، وما يمكنه له من مشاعر.

صوت الهمزة:

تواتر صوت الهمزة في روميات أبو فراس الحمداني نحو ثمان وستين وأربعمائة وألف مرة بنسبة 06.44 %، وهو بذلك يمثل المرتبة الرابعة، ومن المعاني التي تتصف بها الهمزة نجد القوة والشدة، والجرأة، والإصرار، ولقد جاءت الهمزة لتبينها في قصائد أبي فراس الحمداني، ومن أمثلة ذلك قوله في روميته "الصبر في الأسى":

وما الأسر مما ضقت ذرعا بحمله * وما الخطب مما إن أقول له: قد
 وما زل عني أن شخصا معرضا * لنبل العدى، إن لم يصب، فكأن قد
 ولكنني أختار موت بني أبي * على صهوات الخيل، غير موسد
 وتأيي وآبي إن أموت موسدا * بأيدي التصارى موت أكمد أكبد

تواتر الصوت في هذه الأبيات خمس عشر مرة، وفي القصيدة ككل حوالي تسع ومائة مرة وهي توحى إلينا بمشاعر القوة والشجاعة التي اتسم بها الشاعر، والتي لا تتهاوى حتى أمام الموت، ولشدة تحمله لمآسي السجن.

صوت العين:

وقد تواتر هذا الصوت في شعر الروميات نحو واحد وأربعين وتسعمائة مرة بنسبة 04.12 %، وهو يحتل المرتبة الحادية عشرة، وساهم في إضفاء دلالات خاصة على شعر أبو فراس الحمداني ومن أمثلة ذلك قول الشاعر في روميته "العتب":

أيا عاتبا لا أحمل، الدهر، الدهر، عتبه * علي ولا عندي لأنعمه جحد
سأسكت إجلال لعلمك أنني * إذا لم تكن خصمي لي الحجاج اللد

تكرر صوت العين في هذا المثال ست مرات ليساهم بذلك في إضفاء شيء من الوضوح السمعي، لأن الشاعر أراد إسماع صوته أو بالأحرى شكاويه لابن عمه ليرأف بحاله في الأسر ويفديه.

صوت الحاء:

لقد اجتمع الدارسون على أن صوت الحاء صوت حلقي فهو يجتمع مع العين في مخرج واحد وسط الحلق عند القدامى وهذا ما يظهر في قول سيبويه: "ومن وسط الحلق مخرج العين والحاء"²¹، ولقد تبعه العلماء في ذلك. وقد تواتر نحو أحد عشر وخمسمائة مرة بنسبة 02.24 % وهو يحتل المرتبة السابعة عشر، ومن وجوه استعملاته قول أبي فراس في روميته "عجوز منبج":

وأرى محاماتي علي * ها أن تضام من الحميه
أمست بمنبج حرة * بالحزن من بعدي حربه
لو كان يدفع حارث * أو طارق بجميل نيه
لم تطرق نوب الحوا * دث أرض هاتيك التقيه
لكن قضاء الله، وال * أحكام تنفذ في البريه

تواتر صوت الحاء في هذه الأبيات ثماني مرات وفي القصيدة أحد عشر مرة، وأتى تكرار هذا الصوت في هذه الأبيات ليبين لنا، مدى عطف الشاعر على أمه وحبه الشديد لها ورأفته بحالها، فلولاها لما تحمل كل هذا الذل في أسره، ولما تجرأ طالبا الفداء من ابن عمه سيف الدولة، داعيا إياها في نبرة هادئة حزينة بالصبر والدعاء له وبأن ماهو فيه ليس سوى قضاء الله وقدره.

الصوائت:

عرف علماءنا العرب الصوائت منذ القدم، حيث عد ابن جني "الحركات أبعاض حروف المد واللين وهي الألف والياء والواو، فكما أن هذه الحروف ثلاثة فكذلك الحركات ثلاث وهي الفتحة والكسرة والضمة، فالفتحة بعض الألف والكسرة بعض الياء والضمة بعض الواو" كما سمي الفتحة بالألف الصغيرة، والكسرة بالياء الصغيرة، والضمة بالواو الصغيرة، ويمكن تحديد الصوائت العربية كما يلي:

الكسرة: صائت أمامي ضيق منفرج قصير.

الفتحة: صائت أمامي متسع محايد قصير.

الضمة: صائت خلفي ضيق مضموم قصير.

الياء: صائت أمامي ضيق منفرج طويل.

الألف: صائت أمامي متسع محايد طويل.

الواو: صائت خلفي ضيق مضموم طويل.

حظيت الصوائت بخصائص مختلفة عن الصوامت، وذلك لكونها جوفية هوائية، ولكونها تتميز عن الصوامت بخاصتي الوضوح والجر، الأمر الذي أدى إلى شيوعها وترددتها في كثير من الكلمات، وبما أن دراستنا عن الروميات فلقد حفلت بتوظيف الصوائت الطويلة بما يتناسب ومشاعر الحزن واليأس التي كان يعيشها الشاعر. وبعد الإحصاء لهذه الحركات في روميات أبو فراس الحمداني تحصلنا على النتائج التالية:

- احتلت الألف المرتبة الأولى حيث تواترت نحو ثلاث عشر وثلاث آلاف مرة، بنسبة 56.42%

- احتلت الياء المرتبة الثانية حيث تواترت نحو عشرين وأربعمائة وألف مرة، بنسبة 26.59%.

- احتلت الواو المرتبة الثالثة بتواترها نحو سبع وتسعمائة مرة، بنسبة 16.98%.

وإن معنى الحركات الطويلة لا يمكن تحديده إلا إذا حددنا الصوت الذي قبلها، فإنها تكتسب أهميتها ودورها من السياق الذي وظفت فيه، دون اغفال الصوت السابق لها، فهي امتداد لقيمة الصوت الدلالية.

الألف:

إن صوت الألف وعلى عكس الواو والياء فهو يأتي صائت (مصوت) دائما كما أنها تأتي دائما ساكنة وما قبلها يكون مفتوحا، أما عن مخرجها فلقد اختلف اللغويون وعلماء الأصوات في تحديده حيث نجد الخليل يقول أنها صوت هوائي ومخرجها من الجوف، وذلك في قوله: "في العربية تسعة وعشرون حرفا، منها خمسة وعشرون حرفا صحاحا لها أحياز ومدارج، وأربعة أحرف جوف وهي: الواو والياء والألف اللينة والهمزة وسميت جوفاً لأنها تخرج من الجوف فلا تقع في مدرجة من مدارج اللسان، ولا من مدارج الحلق، ولا من مدارج اللهاة، إنما هي هاوية في الهواء فلم يكن لها حيز تنسب إليه إلا الجوف"³، إذا فهي صوت جوفية لأن مخرجها من الجوف وهوائية لأنها هاوية لا معتمد لها في الحلق أو الفم.

أما سيبويه فلقد جعلها من أقصى الحلق مع الهمزة والهاء وذلك في قوله: "فللحلق منها ثلاثة، فأقصاها مخرجا: الهمزة والهاء والألف"⁴، ولقد تبعه في ذلك جمهور اللغويين وعلماء التجويد.

تواترت الألف بشكل كبير جدا في روميات أبي فراس الحمداني، فهي تحتل المرتبة الأولى بنسبة 55.85 %، ومن أمثلة استعمالها قول الشاعر:

هل تحسان لي رقيقا رقيقا * مخلص الود أو صديقا صديقا

لا رعي الله، يا خليلي، دهرًا * فرقتنا صروفه تفريقا

كنت مولا كما، وما كنا إلا * والدا محسنا، وعمي شفيقا

فادكراني وكيف لا تذكراي * كلما استخون الصديق الصديقا

بت أبكيكما، وإن عجيباً * أن يبيت الأسير يبكي الطليقاً

من الملاحظ أن هذه الأبيات قد حضرت فيها الألف بشكل كبير، كما أننا نجد أن استعماله للأصوات المجهورة السابقة لها كان أكثر من استعماله للأصوات المهموسة، والأصوات التي جاءت قبل الألف بكثرة هي "اللام، العين، الدال، الياء، النون، الراء، الميم، الباء"، والتي عبرت عن مشاعر الغضب والانفعال الذين سيطرا على نفس الشاعر وهو بصدد العتاب واللوم الذي اتجه بهما إلى غلاميه إثر تجاهلتهما لفضله ونسيانهما له في محتته وهو أسير.

الياء:

الياء صائت مجهور وقد يكون صامتا أيضا في حالات معينة، ولقد احتل المرتبة الثانية بعد الألف، بنسبة 27.42%، ومن أوجه استعماله قول الشاعر في روميته "أيا أم الأسير":

أيا أم الأسير، سقاك غيث * بكره منك، ما لقي الأسير

أيا أم الأسير، سقاك غيث * تحير، لا يقيم ولا يسير

أيا أم الأسير، سقاك غيث * إلى من بالفدا يأتي البشير

أيا أم الأسير لمن تربى * وقد مت، والذوائب والشعور

إذا ابنك سار في بر أو بحر * فمن يدعو له، أو يستجير

إن الشاعر في هذه الأبيات يخاطب أمه التي بلغه خبر وفاتها وهو في الأسر، فساهمت الياء لتبين مدى حزنه وبكائه ونوحه على أمه، ومما زاد هذا المعنى عمقا استعانه بالأصوات المهموسة أكثر من الأصوات المجهورة وهي "السين، الفاء، القاف، التاء"، وهذا ما يتناسب ومشاعر الحزن والأسى والأنين التي يعيها الشاعر، دون أن ننسى دور أن ننسى دور التكرار في ترسيخ هذا المعنى.

الواو:

لقد أدرج الخليل وسيبويه وابن جني الواو الصائتة مع الواو الصامتة حيث أن مخرجها من الشفتين ويعبر الخليل عن ذلك في قوله: "ومدرجة الواو مستمرة بين الشفتين"⁵، فهي عنده صوت متوسط بين الشفتين، أما سيبويه فجعلها في حيز واحد مع الياء والميم وذلك في قوله: "ومما بين الشفتين مخرج الياء والميم والواو"⁶. أما الدرس الصوتي الحديث ولقد أجمعوا على أنه عند نطق الواو "يكون اللسان تقريبا في موضع نطق الضمة، أي أن الجزء الخلفي من اللسان يكون لدى النطق به قريبا من الحنك اللين، إلا أن الفجوة بين اللسان والحنك في حال نطق الصائت هذا تكون أضيق منها في حال النطق بالضمة. ولقد احتل هذا الصائت المرتبة الأخيرة في ترتيب الصوائت بنسبة 16.72%، ومن أوجه استعماله قول الشاعر في روميته "مصايب جليل":

وأسر أفاسيه، وليل نجومه * أرى كل شيء، غيرهن يزول

تطول به الساعات، وهي قصيرة * وفي كل دهر، لا يسرك طول

تناساني الأصحاب، إلا عصابة * ستلحق بالأحرى، غدا وتحول

فكما نلاحظ ورود الواو مقارنة بالصائتين السابقين قليلة جدا، ولقد ساهم هذا الصائت في تجسيد معنى اليأس والألم والفراغ وطول الوقت وكل المشاعر التي يعاني منها الشاعر وهو أسير لدى الروم، وما ساهم أكثر في ترسيخ هذا المعنى المزج بين الأصوات المجهورة والمهموسة فبينت مدى قوة الألم الذي يعان منه الشاعر وكذا مدا ضعف الشاعر وحاجته إلى أهله وأصحابه.

وهكذا نجد أن الشاعر عبر عن مختلف انفعالاته الثائرة أحيانا، والهادئة المنكسرة أحيانا أخرى، ولقد ظهر ذلك في كيفية استعماله للأصوات التي ساهمت في تشكيل المعنى وإضفاء نغم خاص على روميات أبي فراس الحمداني⁷.

كانت تلك جولة خاطفة لأكثر الأوت دورانا في روميات أبي فراس بنسب عالية، أما غيرها فلم يتعد أحيانا العشرة بالمئة.

1 سيبويه أبو عثمان بن قنبر، الكتاب، تح عبد السلام هارون، الخانجي، ط3، دت، ص432.

2- سيبويه، الكتاب، ص433.

3- الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، تح عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، ط1، 2003، ص12

4- سيبويه، الكتاب، ص433.

5- الأزهرى أبو منصور محمد بن أحمد الهروي، مقدمة التهذيب، تح محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2001، ص66.

6- سيبويه، الكتاب، ج4، ص433.

7- ديوان أبو فراس الحمداني، تح خليل الدويهي، دار الكتاب العربي، ط2، 1994.